

المستمعين ، أو عند متكلم آخر ، مرة أخرى ، فالكلمة كالدرهم الذي يحتفظ بقيمته التداولية سواء انتقل إلى بائع وإلى مشتر ، أو لم ينتقل « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة »

فالبحث في الكلمات من حيث تركيبها المادي ، ومدلولاتها المحسوسة ، وأثارها النفسانية ، يلتقي في ميدان واحد مع كل بحث يدور حول الإنسان ، وحول المعرفة . ومن هنا كان التأمل في اللغة فلسفة وعلمًا ، وبما أن اللغة حركات وإشارات ورموز اتخذتها الفلسفة واتخذها العلم أداة للتعبير ، هكذا نرى اللغة في نفس الوقت ، مادة للبحث وأداة له ، إذ أنها تأمل ينمكس على ذاته .

واللغة ليست شيئًا خاصًا بفرد ، بل ملكًا مشتركًا ، أنه ( بين ) : بين المرء وشعوره ، بين الشعور كحالات وإحساسات ، وبين أبرازها كأحداث ، بين المعنويات والماديات ، بين ( الانا ) والآخرين ، بين الإنسان والعالم .

اللغة هي الواسطة العظمى والصفوى في الغياب وفي الحضور ، فيما كان وفيما هو كائن ، وفيما سيكون .

اللغة تعبير ( الانا ) ونداء للآخرين ، أي دعوة ودعاء ، فالمرء يعطي كلمة « الشرف » فيلزمه الكلام أمام نفسه وأمام المجتمع ويقيد سلوكه ويفرض عليه مسؤولية ، ورجل لا كلمة له ، رجل ينقصه الضمير ، نعني أن إنسانيته غير كاملة ، فالكلام يرتفع من حركة التعبير ، إلى مستوى العناصر « الأنطولوجية » ربما استطعنا أن نقول : الإنسان جسم وروح ولغة (5) .

بعد هذه الفذلكة الفلسفية في الكلمة والمفهوم والتعبير ، نعود إلى جوانب هامة من اللغة فنقول : إذا أردنا أن نعرف أهداف اللغة المكتوبة والتكلم بها والتي قال عنها ابن جني في الخصائص ، والجرجاني في التعريفات : أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وجدنا أنها :

1 - هي أداة التفكير الإنساني ، فالقاموس اللغوي الذاتي ، يشكل إلى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

2 - نقل الأفكار والمشاعر من إنسان إلى آخر .

وهذان الهدفان ينبعثان من ذات الإنسان كوجود مستقل ، ويتجهان أثر ذلك اتجاهين متضادين :

أحدهما إلى خارج ذات الإنسان يقوم بعملية نقل الأفكار والمشاعر ، والآخر إلى داخل الذات ، حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، ومرحلة لهذين الهدفين اللذين ينبعثان من ذات الإنسان ينشأ الهدف الثالث . وهو الهدف الاجتماعي والترابط الإنساني ، والتفاهم البشري (6) .

وقد لخص العالم « أولبرت » وظائف اللغة الاجتماعية فقال :

1 - أنها تجعل للمعارف والأفكار البشرية ، قيمة اجتماعية بسبب استخدام المجتمع للغة بقصد الدلالة على أفكاره وتجاريه .

2 - وأنها تحتفظ بالتراث الثقافي والتقاليد الاجتماعية جيلًا بعد جيل .

3 - وأنها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد ، تعينه على تكييف سلوكه وضبطه حتى يلائم هذا السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه .

4 - وأنها تزود الفرد بأدوات التفكير ، وما كان المجتمع البشري البصير إلى ما هو عليه الآن ، بدون التعاون الفكري لتنظيم حياته ، ولا يتأتى هذا التعاون الفكري ، إلا بالتفاهم وتبادل الأفكار بين أفراد المجتمع ، والوسيلة العملية المسورة لهذا التبادل والتفاهم ، هي : لغة الكلام ، وبدونها ينحط التفاهم إلى مستوى التعبير عن المدركات المحسوسة والانفعالات الأولية (7) .

فاللغة أهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها ، وإذا تدرجنا إلى مستويات المجتمعات الحضارية نجد أن اللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات هذا المجتمع . فوحدة الغايات والمبادئ تدعو إلى البحث عن دلالة شاملة للأشياء والأفعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشيء أو الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي ، دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة أفراد مجتمع اللغة الواحدة .

فاللغة باعتبارها شرطًا ضروريًا لتماسك المجتمع ، إنما تقع في كونها من جهة ضربًا من السلوك البيولوجي الخصب بأدق المعاني ، ناشئًا تلقائيًا من المناشئ العضوية الأولى ، وفي كونها في الوقت نفسه - من جهة أخرى - تضطر الفرد الواحد من أفراد الناس أن يلتزم بوجهة نظر سائر الأفراد الآخرين ، وأن ينظر إلى الأمور ، وأن يجري عليها البحث من زاوية

بالنسبة للشق الاول من وظيفة اللغة ، فواضح ان طبيعة التخصيص تبدو في وظيفة كل فرد ، بحيث لا يمكن أن يكون خبازا او نساجا وحدادا ونجارا وصيادا في وقت واحد .

ومن هنا كان على الفرد أن يعتمد في اموره على غيره من اصحاب هذه المهن ، وأن يتصل بهم لقضاء حاجاته ، ولا سبيل الى هذا الاتصال ، ولا الى قضاء الحاجات الا بواسطة التفاهم ، ولا بد للتفاهم من لغة ولو راقب المرء نفسه يوما واحدا من حقل الاستعمال اللغوي ، لراى كيف يعتمد وجوده الى حد كبير على وجود اللغة ، بل ان مصالح الانسان قد تتوقف على حسن استخدامه للغة ، لا على مجرد الاستخدام .

واما الشق الثاني : من وظيفة اللغة وهو : تهيئة الوضع المناسب ، لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية ، فان اللغة أصل وجذر لكل ما يمكن أن نتصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كالتاريخ المشترك ، والدين المشترك ، والادب المشترك ، والفكر والاحساس ، والارادة والعمل المشترك ، اذ لا يقوم شيء من ذلك بدون اللغة ، وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة ، أو دين بلا لغة ، أو فكرة بدونها ، أو احساس لا يترجم عنه بها ، بعد ان يتم تكوينه بواسطتها ، أو ارادة تقوم بغيرها ، أو عمل يتحقق بعيدا عنها .

ان الشركة في كل أولئك ، هي الحياة الاجتماعية ، ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة (10) .

ويعتبر بزوغ اللغة وبروزها الى الوجود اثناء عملية تطور البشر وارتقائه من المظاهر القائمة التي تمتاز بما لها من اهمية وخطورة بالغتين .

وذلك ان الوسيلة الوحيدة الفعالة التي نتمكن بها من ادراك معنى الحياة ، وتوضيح معالمها ، ونعت مظاهرها هي اللغة .

فهمة اللغة هي تمثيل العالم على مرآة تمكسه ، وفلسفة اللغة تنطوي على انعاشها ، وتنسيقها بحيث تصبح مطية للمعاني ووسيلة للاتصال والتفاهم ، ورمزا للحقيقة ، وشارة للواقع .

قال الامام محمد عبده : اللغة مجلس للفكر وترجمان له (11) .

وجاء عن محمد المبارك : ان اللغة سبيلنا الى اكتشاف جواني الامة التي تتكلمها ، واستكناه خصائص روحها التي تكمن وراء برانيها (12) .

لا تقتصر على فرديته الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم ، باعتبارهم شركاء أو اطرافا متعاقدة ، ان شئت فهي مشروع مشترك ، لاشك قد يكون عنصرا من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الوجه والهدف لنشوء اللغة . ولكن الذي لاشك فيه أيضا ، أنها تهم أول ما تهم شخصا آخر - المستمع - أو اشخاصا آخرين ، يوجه اليهم المتكلم الحديث ، فوسيلة التفاهم بين المتكلم والمستمع تقيم شيئا مشتركا ، ومن ثم بمقدار ما يكون للغة من هذا الاشتراك تصبح عامة وموضوعية (8) .

وإذا اردنا أن نعرف اللغة ، تعريفا جامعا مانعا - كما يقول علماء المنطق والاصول - على ضوء تحديد ماهيتها ، فاننا نجد ذلك في منتهى الصعوبة ، ولو تحقق الوصول الى تعريف جامع مانع ، فسنجد أننا انتهينا الى نص لا يمكن أن يكون تعريفا أبدا ، يقول الدكتور تمام حسان : ان تعدد مظاهر اللغة من صوتية ، الى كتابية ، الى اشارية حركية ، الى اشارية ضوئية ، الى لغة باللمس على طريقة المكفوفين الى غير ذلك ، لا بد أن يفرض على نص التعريف الذي نحاوله أن يطول حتى لا يعود تعريفا ، اذ يصبح وصفا مسهبا لمدة أمور ، كل منها « لغة » ويبقى بعد ذلك أن يلجأ العلماء في تعريف اللغة الى بيان وظيفتها (9) .

وقد قال بعض العلماء في بيان التعريف : ان اللغة وسيلة لايضاح الافكار . وقد رد العالم « تاليران » على ذلك بأن اللغة وسيلة لاختفاء الافكار ، لا لايضاحها . وقد قال علماء آخرون : ان اللغة وسيلة للتعبير . وقد اعترض على هذا التعريف بأن المرء قد يتكلم الى نفسه أحيانا ، حتى لا يكون بحاجة الى التعبير عن افكاره ، اذ يكون قد عرفها فعلا ، وأدركها ادراكا أعمق مما تستطيع كلماته أن تعبر عنه .

وقال بعض العلماء : ان اللغة افراز حركي ضروري للفرد . وصالح لان كيف بالكيفيات الاجتماعية ، وبهذا يمكننا أن نفسر كلام المرء الى نفسه ، وكلامه الى صاحبه .

وقال « هنري دولاكروا » : اللغة هي دالة الفكر .

والحقيقة أن اللغة ، في عمومها ، ذات وظيفة هامة جدا يمكن أن تلخص في أمرين :

- 1 - أمر فردي : هو قضاء حاجة الفرد في المجتمع .
- 2 - أمر اجتماعي خالص : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية . فاما

ومما هو جدير بالذكر ان انظار العلماء اختلفت  
- في تعريف جامع مانع للغة - طبقا للمفاهيم التي  
يبرسونها .

ولذلك نرى فريقا يعرفها على اساس عقلي او  
نفسي ، ويمثل هذه المدارس ذلك التعريف ، وهو : ان  
الغة استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الافكار  
ونقلها من شخص الى آخر ، ومن مؤيدي هذه المدرسة  
العالم الامريكي « ساير » . وينظر علماء الفلسفة  
والمنطق الى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الافكار  
فيقول الاستاذ جفوتز في كتابه « مبادئ دروس  
المنطق » : ان للغة ثلاث وظائف :

1 - كونها وسيلة للتوصيل . 2 - كونها مساعدا  
اليا للتفكير . 3 - كونها أداة للتسجيل والرجوع .

وينظر علماء المجتمع اليها باعتبار وظيفتها في  
المجتمع ، فيعرفها العالم اللغوي الامريكي ( ادجار  
ستير تفت ) بانها : نظام من رموز ملفوظة عرفية  
بوساطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية  
العينية .

ومن التامل في هذه المجموعة من آراء العلماء  
يتبين ان تعريف علماء النفس والمنطق يهدف الى ناحية  
واحدة ، لا يتفق والمطلوب من اللغة في المجتمع الانساني  
لانها لا تتفق عند حد التعبير عن الافكار ، وتوصيلها الى  
الاذهان كما يقول علماء المنطق لان ذلك يقصر وظيفة  
اللغة على طبقة من الناس هم اهل الفكر ، حال اشتغالهم  
بأمور فكرية .

ولا يمكن ان يقال ان اللغة أداة لنقل الافكار ، وانما  
هي وسيلة للتعاون والترابط بين افراد المجتمع ، فاننا  
نتبين كثيرا من الناس يتكلمون في موضوعات ، وليس  
يعنيهم نقل افكارهم الى غيرهم ، وانما يكون القصد  
من حديثهم الترفيه والتسليية ، او النظر في أمور  
تخصهم في ادارة شؤونهم .

وبذلك يبدو ان رأي علماء المجتمع بتعريفها  
تعريفا يتناسب مع وظيفتها في المجتمع هو خير  
ما تعرف به اللغة ، واذا كان ذلك صحيحا فينبغي ان  
تشير الى تعريف الاقدمين للغة : وهو انها اصوات  
يعبر بها كل قوم عن اغراضهم (13) وهذا التعريف  
للحرجاني وابن جنبي . ومن الملاحظ ان هذا التعريف  
قد تمشى مع وجهة علماء المجتمع تمثيا دقيقا لان  
الاصوات ما هي الا الرموز الصوتية التي تنبئ عن  
مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج اليه الانسان في

حياته سواء كان احتياجا عاديا كشئون الناس في  
حياتهم المتشعبة مع احتياجاتهم في كل اوقاتهم ، ام  
كان احتياجا ضروريا كاحتياج الباحث للتعبير عن  
الافكار القائمة بنفسه لتوصيلها الى اذهان الدارسين .

وان اللغة ذات اثر قوي في حياة المجتمع الانساني ،  
لانها السبيل لفهم الاشياء المحيطة بالناس ، والطريق  
لارتباط افراد المجتمع بعضهم ببعض ، والموصل  
للافكار القائمة بالاذهان ، والمهيئة لرفعي الامم في شتى  
نواحيها (14) .

وقال ( جون لوتز ) : الوجود البشري ملتحم  
باللغة . فاللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تصاحب سلوك  
الناس في كل لحظة ، وترافق المجتمعات في اطوارها  
التاريخية المتلاحقة ، فصيبتها ناموس التغير الحتمي  
الذي يجماها أداة صادقة للتعبير ، باللفظ والرمز  
والايحاء ، عن حياة المجتمعات العقلية والحسية ،  
ومعيارا دقيقا لرفيها او انحطاطها في ميدان الثقافة  
والعلم والحضارة .

واللغة لذلك لا تعرف التحجر ، وهي قدرة  
على العمل ، قدرة كامنة ، وهي لا تفتأ تتغير شكلا  
ومبنى ، تتغير حروفها واصواتها او صيغتها وبنائها  
او من ناحية معناها ، فقد تنقل الكلمة من معنى الى  
آخر ، او تضيف الى معناها معنى آخر جديدا دون  
ان تترك الاول .

وان تطور لغة ما مرتبط بتطور الاقوام التي  
تنطق بها ، واللغة والتطور عنصران مرتبطان ، وهما  
سمة المجتمعات منذ اقدم العصور ، ولا سبيل لتفضيل  
لغة على اخرى ، وانما يكون التفاضل بين الوسائل  
المتبعة لتنمية اللغات واغناء ترانها التعبيري .

الامة البدائية حتما لفتها بدائية وغير مصقولة  
ومفتقرة الى عديد من العبارات والالفاظ التي تؤدي  
المعاني الحسية والمجردة ، فهي لذلك تقتصر على  
التعبير عن تفكير هذه الامة ووسائلها الثقافية المحدودة  
وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعا ، وثقافته نموا ،  
تطورت لغته وازدادت قدرتها على التعبير واعطاء كل  
سمة لفظا مناسباً .

ان اللغة تمنح الانسان بالاضافة الى ورائته  
البيولوجية خطا آخر للاستمرار ، يجعل الثقافة ،  
وتراكم المعرفة ، أمرا ممكنا .

وقد اتاح العلم الحديث للغة إمكانات ووسائل  
متعددة للتعبير عن دقائق الاحكام العقلية في صورها